تلك السفرة من المنجنيق (الى النار) حيث عرض له جبريل أقوى الاسباب، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما اليك فلا. ودُر معها حيث دارت ناظرا الى من أزمتها بيديه، والتفت اليها التفات العبد المأمور الى تنفيذ ما أمر به والتحديق نحوه، وارعها حق رعايتها، ولا تغب عنها ولا تفن عنها، بل انظر اليها وهي في رتبتها التي أنزلها الله إياها، واعلم ان غيبتك بسببها عنها نقص في عبوديتك، بل الكمال ان تشهد المعبود وتشهد قيامك بعبوديته وتشهد ان قيامك به لابك ومنه لامنك وبحوله وقوته لا بحولك وقوتك، ومتى خرجت عن ذلك وقعت في انحرافين لا بد لك من أحدهما: إما أن تغيب بها عن المقصود لذاته لضعف نظرك وغفلتك وقصور علمك ومعرفتك، واما أن تغيب بالمقصود عنها بحيث لا تلتفت اليها، والكمال أن يسلمك الله من الانحرافين فتبقى عبدا ملاحظا للعبودية ناظرا الى المعبود، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة الا بالله

## حرب أمم المدنية لا الملل الدينية

تسمي الجرائد العربية والاوربية هذه الحرب المشتعلة في أوربة حرب الامم، ولا نرى لها مخالفا في صحة هذه التسمية، فقد أجمع الناس على ان جميع الامم الاوربية المتحاربة موافقة لدولها على الاستمرار على هذه الحرب الى أن يفنى آخر رجل يقدر على استعمال السلاح فيها، وينفق آخر دينار في صناديقها، أو تقهر عدوها قهرا يخضع به لحكمها، ويذعن صاغرا لشروط الصلح التي تضعها حكومتها، وينقلون لنا ان النساء موافقات للرجال في هذا الامر، وان القسيسين والرهبان والاشتراكيين أيضا متفقون فيه مع رجال الحرب، الا ما تنقله الجرائد آنا بعد آن عن بعض النساء والاشتراكيين في ألمانية من الرغبة في عقد الصلح كراهة للحرب وأطيطا من أوزارها، وأنينا من أهوالها وسوء آثارها، ولعل هذا من قبيل ما كانت تنقله في أول الحرب من كراهة الشعب الالماني كله لها ورغبته عنها، وكون عاهله هو الذي ساقه اليها سوقا، بل دعّه اليها دعا، وكنا أول من خالفهم في ذلك

على أن المعقول الذي لا يعقل غيره هو أنه يوجد في كل أمة محاربة كثير حتى

من أهل الرأي يكرهون الحرب لذاتها ويتمنون الصلح على علاته، والمعقول أن يكون أكثر هؤلاء الناس من أفراد الحكماء الراسخين، ومن النساء والاشتراكيين، ومن المتدينين الذين يفهمون ان الديانة المسيحية ديانة سلم وتواضع وزهد في المال والجاه والرياسة والملك — وما أكثر المنتمين اليها على هذا الفهم — فحيث يكثر هؤلاء يكثر الميل الى الصلح، والجنوح الى السلم، وان لم تعن الجرائد بنقل أخبار هؤلاء في بلادها و بلاد أحلافها، لئلا يغتر أعداؤها و يظنون أن أممهم غير متفقة على تأييد حكوماتها، وهي انما تنقل عن شعوب أعدائها الميل الى الصلح في سياق ذمها بالعجز والضعف، لا في سياق مدحها بكراهة القسوة والوحشية والافساد في الارض، واستقباح الطمع المفضي الى اهلاك الحرث والنسل، ولذلك كانت تقول في أول الحرب ان الشعوب الجرمانية كارهة له مكرهة عليه، و يوشك أن تخرج على حكومتها وتثور عليها، ثم رجعوا عن ذلك ووصفوها بضده، فالجرائد السياسية لا تكتب الا ما يمليه عليها الهوى، فهي تابعة لمهاب أهوائه تميل معها كيفما أمالتها

الا أنها صادقة في قولها ان السواد الاعظم من الامم الاوربية مؤيد لدولها بمالها ورجالها واجماعها على الاستمرار في الحرب، الى أن تنال ما ترجو من النصر، وتكون كلمتها هي العليا، وكلمة أعدائها هي السفلى، فان من يوجد في كل منها من محبي السلم بباعث الدين أو حب الانسانية والميل الى التواضع والقناعة مغلو بون على أمرهم، ووجودهم لاينافي ما أجمع عليه الكتاب من أن هذه الحرب هي حرب الامم لا الدول، فان العبرة بالغالب والنادر لاحكم له، وقد جرت عادة الناس أن يطلقوا على جملة الامة مافشا فيها وثبت لاكثرها من الاعمال، أو اتصفت به من الصفات والاخلاق، ولن تستطيع دولة من دول أوربة الاستمرار على الحرب اذا كان الرأي الغالب في الامة لايؤيدها، الا أن تكون الدولة الروسية التي ليس لأمتها رأي غالب

ومن أعجب ماتقل الينا عن الحكومة الانكليزية — ويحسن عده في هذا المقام من فضائلها التي تجري فيها على عرق — أنها حكمت أخيرا بوجوب التجنيد الاجباري على المرتاب الا من يرى ذلك مخالفا لوجدانه واعتقاده، وقد سبق لسلفها مثل ذلك في قانون وجوب التلقيح للوقاية من الجدري، وهذه الفضيلة مما امتاز به الانكليز

على غيرهم، وهم موافقون فيه لقاعدة من قواعد الاسلام تركها حكام المسلمين منذ قرون

ان ما أجمع عليه الناس من تسمية هذه الحرب حرب الامم قد استثنوا منه الامة العثمانية بالنقل، كما استثنينا منه بعض الافراد من كل أمة بحكم العقل، فقد نقلت الينا بلاغات دول الحلفاء الرسمية، والبرقيات العامة والجرائد الغربية والشرقية، أن الشعب العثماني كاره لهذه الحرب، بل قالوا مرارا ان السلطان وولي عهده وسائر أهل بيته واكثر رجال دولته كانوا معارضين فيها، وما زالوا كارهين لها، بل قالوا أيضا ان بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي كانوا وما زالوا كذلك، وان السبب المباشر لإيذان دول الاحلاف الدولة بالحرب — وهو اعتداء البارجتين الالمانيتين (غوبن وبرسلو) على ثغور روسية — لم يكن باذن من السلطان ولا الصدر الاعظم، بل لم يعلما به الا بعد وقوعه، وقد وعدا سفراء دول الاحلاف بعدم العود الى مثله، وان أنور باشا ناظر الحربية هو الذي اتفق مع ألمانية على ضم الدولة اليها في هذه الحرب، فغلب نفوذه على نفوذ غيره من زعماء جمعيته بمساعدة الالمان، الذين كان قد وُكل اليهم أمر اصلاح الجيش العثماني بعد حرب البلقان. ولا تزال الجرائد تتخوّلنا بأخبار كراهة العثمانيين لهذه الحرب في عاصمة الدولة وولاياتها، وما يأتمرون به لاسقاط الحكومة الاتحادية وانشاء حكومة جديدة تصالح الاحلاف وتتفق معهم، وبسعي صباح الدين أفندي ابن أخت السلطان الى ذلك واتفاق حزبه أخيرا مع حزب المشير شريف باشا وبعض رجال حزب الحرية والائتلاف على ذلك

أنا لم أصدق كل ما نشرته الجرائد في هذا الموضوع وان كان بعضه رسميا، ولا أكذبه كله وان كان سنده ضعيفا واهيا، واعتقد ان أهل الحلّ والعقد من زعماء جمعية الاتحاد والترقي كانوا وما زالوا متفقين مع الالمان، وان السواد الاعظم من العثمانيين كاره لهذه الحرب في كل مكان، فهي حرب الدولة التي يتولى ادارتها الاتحاديون، لا حرب الامة العثمانية وان أقرها المبعوثون، فان المبعوثين في هذا العهد لا يمثلون الشعوب العثمانية ولا يعبرون عن رأيها، بل أكثرهم ألسنة لجمعية الاتحاد والترقي ومظهر لارادتها

اذا تمهد هذا فاعلم أيها القارئ أني لم أقصد به المدح أو الذم للامم المتفقة على الحرب أو المختلفة فيها، ولا التخطئة أو التصويب لموقدي نارها، وانما أريد ان أثبت

أنها حرب المدنية الاوربية الحديثة ، لا حرب دينية ولا مذهبية ، وهذه المدنية مادية لا روحية ، دنيوية لا دينية ، وغاية اصحابها ومقصدهم منها هو التمتع بالشهوات البدنية ، والعلو والعظمة في الارض ، والتكاثر في الاموال وضروب الزينة ، فهي لا تتفق مع شرعة المسيح ( عليه السلام ) في ورد ولا صدر ، ولا تسير في منهاجه في مبدإ ولا غاية ، ولو كان روح المسيحية الحق له سلطان غالب في أوربة لما وقعت هذه الحرب البتة ، كلا ان روح المسيحية مغلوب على أمره لسلطان المدنية المادية ، فموقدو نار الحرب إما من خلص الماديين ، وإما من متبعي أهوائهم في فهم الدين ، ولكن أهوال الحرب قد أيقظت في جمهور كل أمة منهم شعور الدين ، وكثر فيهم من يصلون ويدعون الله ان ينصرهم على أعدائهم ، كما هو شأن البشر في حال الكروب والخطوب ( فاذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر ذا هم يشركون ، فاذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون )

فهل يعتبر بهذه الحرب أولئك الخادعون المخدوعون الذين كانوا يعيبون الاديان ، بزعمهم أنها مثار البغي والعدوان ، ومسعر نيران الحرب بين الانسان وأخيه الانسان ، وانه لولاها لآخت المدنية بين الناس ، وجمعت بين ما تفرق من الاجناس ؟ كلا إن الحياة المدنية هي التي تولد في النفوس المطامع التي لا حد لها ، وتقرن التنافس بالتحاسد ، وتسوق الحسد الى البغي والتقاتل ، وان الدين ينهى عن ذلك كله ، ولكن الناس كثيرا ما يخطئون في فهمه ، وكثيرا ما يتعمدون تحريف كلمه عن مواضعه ، فهم يسيئون استعماله كما يسيئون استعمال الحواس والعقل وغير ذلك من نعم الله تعالى ، فمن مقاصد الدين إزالة الخلاف من بين الناس فاتخذوه سببا من أسباب الخلاف ( وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ) فالحرب سنة من سنن الاجتماع قد يخفف الدين شرورها بقدر ارتقائه واستمساك أهله به كما بيناه في مقالة نشرناها في الجزء الثالث عنوانها ( حرب المدنية الاوربية ، والمقارنة بينها وبين المدنية الاسلامية والفتوحات العربية )

وليس للمدنية المادية مثل هذا التأثير في نفسها ، فان وجد في أمم المدنية من

يقبح الحرب أو يقبح ارتكاب القسوة فيها غيرة على العمران ومحافظة على حقوق البشر غير مهتد في ذلك بتربية الدين ولا متأثر بفضائله فهو لا يكون الا كالتاجر الخوّان لا يحجم عن صفقة الا خوفا من الخسارة، فمتى غلب على ظنه انه يربح فيها لا يبالي ما يفعل . اللهم الا الافراد من الحكماء ، الذين رجح العقل والفضيلة في نفوسهم على الاهواء، كالفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي الذي اهدى اليه عاهل الألمان وساما علميا فلم يقبله منه لانه قيصر حرب وهو عدوّ للحرب ، وإياك ان تظن في هذا الحكيم الكبير انه كان يبغض الالمان بغضا سياسيا لمناظرتهم لقومه فلبس عليهم وعلى الناس بما ادعاه من سبب رفض الوسام ، فكان ذلك من الرياء الفرنسيّ الذي يغمز به الانكليز منتقدوهم كما صرحوا به في هذه الايام[1] ، فان هذا الحكيم الكبير قد نصح لليابانيين بأن لا يولوا قومه الانكليز شيئا من شؤون بلادهم ، لان ذلك يكون ذريعة لعبثهم باستقلالهم ، فأي استقلال في الرأي واخلاص في النصح أدلّ على الحكمة والفضيلة من هذا ؟

على ان هذا الفيلسوف لم يكن ماديا بل كان يشكو من انتصار المطامع المادية في البلاد الاوربية — حتى في بلاده — على الفضيلة كما حدثنا عنه شيخنا الاستاذ الإمام. واننا نذكر في هذا المقام بعض ما دار بين حكيمي الشرق والغرب في زيارة الاول للثاني بداره في ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٣ : بدأ المزور الزائر بسؤاله عما رأى من تغير الافكار في انكلترة وعما دخل الشرق من الافكار الاوربية ، وشكا اليه من سريان الافكار المادية الى قومه وما يخشى من إضعافها للفضيلة، ثم دار بينهما ما يأتي

قال الفيلسوف : الحق عند أوربة للقوة . قال الاستاذ الامام : هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقليد الاوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعها . قال الفيلسوف : محي الحق بالمرة من عقول أهل أوربة وسترى الامم يختبط بعضها ببعض ليتبين من هو الاقوى فيكون سلطان العالم.

---

(١) من الشواهد على هذا ما في مقالة ( آراء الاميركيين في الحرب ) المنشورة في جزء يناير سنة ١٩١٥ من المقتطف ، وأوضح منه مقالة لكاتب قصصي انكليزي كتبها لصديق له فرنسي ونشرت في المقطم

قال الاستاذ : عندي أمل ان همم الفلاسفة واجتهادهم في تقرير مبادئ الحق يحول دون ذلك . فقال الفيلسوف كلاما يدل على يأسه من ذلك . وقد كتب الاستاذ في مذكرته بعد الاشارة الى هذه المذاكرة مانصه :

« ماذا حركت مني كلمة الفيلسوف « الحق للقوة » الخ ؟ جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل فأثارت حرارة وهاجت فكرا ، لو جاءت من ثرثار غيره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد، فكانت (تكون ) جيفة تعافها النفس فلاتحرك الا اشمئزازا وغثيانا

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد في راحة الانسان وتوفير راحته وتغزير نعمته ( أعجزهم ) ان يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها على الانسان حتى يعرفها فيعود اليها ، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضيء ، افلا يتيسر لهم ان يجلوا ذلك الصدأ الذي غشي الفطرة الانسانية و يصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني ؟ حار الفيلسوف في حال أوربا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء؟ الرجوع الى الدين الخ الدين هو الذي كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى أربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها » اهـ

الظاهر ان الاستاذ كان يريد ان يتوسع في هذا الموضوع كما يشير الى ذلك قوله في مذكرته « الخ » ولعله كان ينتظر فرصة مناسبة للمقام سواء كانت عملية كهذه الحرب أو قولية كمقال ينشر في الصحف في تفضيل المدنية المادية على المدنية الدينية فيكتب مقالا يبين فيه الحق ويزيل فيه الالتباس مؤيدا بالحكمة الصحيحة وشواهد التاريخ ، وقد بينا شيئا من المقابلة بينها وبين المدنية الاسلامية في المقالة التي أشرنا اليها آنفا

ان أصحاب النظر والاستقلال من هؤلاء العشاق للمدنية المادية — وقليل ما هم — كانوا يغرقون في حسن الظن بالمدنية المادية و بأهلها إغراقا بعثهم على الجزم بأن فكرة الحرب قد قضي عليها في أوربة قضاء مبرما فلن توقد لها هنالك نار، وكانوا يقولون : ان وجد من الملوك والرؤساء من يسعى لها سعيها ، و يحاول ان يقدح لها زندها ، فان شعبه هو الذي يضرب على يده ، و يفت في عضده ، وقد كنا نخالف هؤلاء في الرأي ، ومنهم من هو أعلم منا بحال القوم ، ولكن رأيهم في ذلك خالف رأي من هو أعلم منا ومنهم بحال أوربة وفلسفتها . الا وهو شيخ فلاسفتها الاكبر، هربرت سبنسر

كان أولئك المحسنون للظن، من ذوي الاستقلال في الرأي، لا ينكرون كالمقلدين سيئات هذه المدنية المادية، ولكنهم يقولون إنها اذا قيست بسيئات المدنية الدينية كانت أقل منها وأخف ضررا، ونحن نخالفهم في هذا أيضا، ونقول ما كل سيئات المدنية القديمة صادرة عن الدين والفلسفة الروحية، وما كل حسنات المدنية الحديثة صادرة عن الالحاد والفلسفة المادية. ولا تضاد بين العلوم والاعمال المادية، و بين العقائد والاعمال الدينية، وانما نعني بالمدنية المادية المذمومة ما كان مبنيا على جحود حياة بعد هذه الحياة الدنيا، وحصر ثمرات أعمال البشر في التمتع باللذات الدنيوية من طعام وشراب وفراش وزينة ورياسة — ونعني بالمدنية الدينية ما كان مبنيا على أن للانسان حياتين يجب عليه أن يأخذ حظه من أولاهما الدنيا بالمعروف و يستعد فيها للاخرى بالعمل الصالح، على حد قوله تعالى ( وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين ) فان أصول الدين التي دعا اليها الرسل هي الثلاثة المنصوصة في قوله تعالى ( ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون )

من البديهي ان من لم يكن له حظ من وجوده الا التمتع بلذات الدنيا وزينتها لا يكون لهم من حياته الا تحصيل المال والجاه الموصل اليها بحق أو بغير حق، وان الحق يكون عنده تابعا للقوة دون العكس، فان وجد في أهل هذه المدنية المادية من يعترف بحق لضعيف فانما يعترف به لمنفعة يراعيها، أو لمفسدة يتقيها، ولو تنازع أقوياء هؤلاء على الضعفاء، لما سلم ضعيف من الايذاء، وقد كان من المصالح جعل بعض الدول الصغيرة في أوربة حاجزا بين الكبيرة المتعادية منها، وتعاهدوا على ان تكون حرما آمنا لا يجنى عليها، ولكنهم لم يرعوا هذه العهود ولا غيرها عند حاجتهم الى نقضها في هذه الحرب، والدين لا يبيح ذلك. قال تعالى في العهود بين المسلمين والمشركين ( الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين ) وقال في المؤمنين الذين لم يهاجروا الى النبي (ص) ( وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم و بينهم ميثاق والله بما تعملون بصير )